رزق الله حسون الحلبي

(تابع ما قبلهُ)

اما شعرهُ فاني قد وقفتُ على بعض منظوماتهِ التي لم تطبع فاحببتُ نشر نخبة منها وقد تأثرتُ لما قرأتهُ من منظومة في زمن اعتقالهِ فقدمتها بالذكر ومنها قولهُ في وادي ألبير

خيالك يا ألبير مؤنس وحشتي اذا اشتد بي شوقي ولم أرَ مؤنسا
ابوك الذي ما بتُّ الاَّ موسدًا ذراعيهِ من وجد اذا الليل ضمسا
لهُ سبق الدنيا لوعة وتلهفٌ وحرقة قلب من زفير ومن اسى
اذا ما استطال الليل يرقب صبحهُ بكى لبكاهُ الليل حتى تنفَّسا
فهل مقلتي قبل الوفاة تراك ام اموت وقد عانيتُ ضيمًا وأبؤسا

وقولهُ من ابيات

حجبوني في حجرة وحموا بين مقلتي ان يزورني او أزورَه
يا صبيًّا على حداثة سنٍّ يكتم السرَّ لا يبيح مستورَه
أرقد الليل فوق صدري من عكس الضياء[1] على محياك صورَه
ما تأملتها بكيتُ التياعًا ضارعًا ان تراك عيني قريره

ومن ابيات أخرى

ألبير اني لمن وجدي ومن كلفي أبيتُ ذا لوعة في الروح تبقيها
وهل ترى نافثي روح تعذبني وكل يوم اليم البين يفنيها
لولا رجائي برب الخلق لما رغبتُ في العيش والدنيا واهليها

وقولهُ فيهِ

شوقي الى ألبير كالظمآن للماء النمير
واخالني لفراقهِ أصلى بنيران الزفير
يا خدهُ الوضاح هل من قبلة تفني الزفير
بيني وبينك البحرُ ومفاوزٌ فيها اسير
أمسيتُ تيهًا ولا ادري الى اين المصير
ألبير اسعدك الذي سواك كالقمر المنير
يحميك من شرّ الردى في ظلهِ المولى الكبير

(١) اشبع همزة الضياء وهو يجوز مكروه ترى منهُ كثيرًا في شعرهِ

وقال يذكر ولده وابنيه :

حسبي بيتاً اذا لا أرى بجانبي ألبير ماري وروز
تكفني من لوعتي لم أزل محترقاً كالجمر نارٌ يجوز

ومما قاله في ايام اعتقاله

في السجن والبؤس والقفر او فوق بريد بتٌ منذ ربع عام
ولستُ ادري بعدذا ما الذي يجرُّه لي خوض موت زؤام
ولم ازل اذكر البير في قلب كسير باكياً ذا غرام
حتى بدا لي لا ارى وجهه ما عشتُ لكن طيفهُ في منام
هيهات ان يرقد ذو لوعةٍ وجداً وذو خوفٍ من الانتقام
العشق والخوف وبا ئس ما التقى مع الحالين داءٌ عقام
ثلاثة واحدها قاتلي اسرع من ركز القنا والحسام
ولا أبالي طالما كان لي مبلغُ البير مني السلام

ومما قرأته له يستغيث بفؤاد باشا قوله

فؤاد هذا الملك عطفاً على غرسك يذوي في شقا محنتهِ
ان لم تغث عبدك من ذا الذي يحميهِ او ينجيهِ من نكبتهِ
يا غالب الدنيا بساداتها شرقاً وغرباً بدرها فطنتهِ
وواحد الآحاد في عصرهِ وصائب التدبير في حكمتهِ
أحييت هذا الملك من بعدما اودت بهِ الاخطار في فترتهِ
وصنتَ اهليهِ رؤوفاً بهم من سطوات الدهر او حطمتهِ
إرحم عُبيداً لك واستبقهِ للولد المحبوب من مهجتهِ
فهو الذي حقق ظني بما أرجو من الانصاف او رحمتهِ
امسيتُ في الحبس كفرخ القطا من كرب الحزن ومن شدتهِ

وقال مستغيثاً يشكو من حسّاده :

نوائب الدهر لا تدوم وان طالت شدائدها على رجلِ
والمرء رهن لكل نائبةٍ ما دام في فسحةٍ من الاجلِ
قد قسّم الله رزق كل فتى وما يصابُ بهِ من الازلِ

والخير يمنحهُ الورى كرماً على يد مخلص ومتبل
والشرُّ قدَّرهُ على يد من احصاهُ في الاخسرين مرتذل
أُهيذك الله ان تميلَ الى مقال واشٍ يسعى على دخل
وكيف تأخذني باغراء ذي حقد يكشر بالعداوة لي
اشبه خُلقاً بالذئب مفترساً طار اسمهُ في الاذى مع المثل
لولا البنون وما احاذرهُ ضيماً يلمُّ بهم على عجل
ما كنتُ اضرع ان تحوّلني عن مقصد النمل ليس عن زلل

ومما قالهُ بعد انقاذهِ ما كتب بهِ الى احد اصحابهِ من ابيات :

الحمد لله على نعمته اني لا أيأس من رحمته
انقذني من نقمةٍ ضيمها أوهنني سقماً على شدته
واليوم في ظل المليك الذي امنتُ كل الخوف في بلدته
المرء لا يعلم ما يتبغي يختار من باريهِ في محنته
والطرق لا يعرف ما خيرها للسفر المقصود في فكرته
لا تنسَ من القى بهِ دهرهُ وخان الامة سيء حفرته
فهو الاخ الصادق في حبهِ يا خير من يدخر في صحبته
شهادة القلب دليلٌ على صحة قولي او على شبهته
يا اخاً اشتاقهُ مثلما ألثم ألبير على وجنته
أنّى يكون الملتقى ومتى فالغنم لا افتقد من فرسته
إني اذا القاك انسى الذي لاقيتُ من دهري ومن قسوته

ومن اوصافهِ قولهُ يصف رحلتهُ الى قوقاس من بُرطي ياخرة في نهر ريون

تشق جنبي ريون جارية في غاب بُرطي استطيشها ظهرا
وصرتُ من قلبها بمنزلةٍ يؤثرها ذو المراتب الكبرى
والجوُّ يرشح من ذكاء على الغابة يكسو فروعها تبرا
والروح للطير فوقهُ ظُلَلٌ كبائس الدرّ فتّقت زهرا
خيّل لي بَرَداً تعلق في الأغصان تنثرهُ الصبا نثرا
او عارضٌ عن سبيل مقصدهِ يعوقهُ الروحُ في السما مرّا

لا يدفع الشكّ عنهُ غيرُ شذاً ... من طيبهِ أرّج الربى عطرا
والغاب أجمهُ ارتدى حلاً ... من بهجة الفصل رونقاً خُضْرا
في مستوي القاع منبتاً بسطت ... يدُ الطبيعة مهدهُ غورا
يسّاب فيهِ ربونهُ مدفقاً ... شعباً فشعباً مضى سقى البحرا
واليوم حتى الماء تحملنا ... جارية ذات بهجة حرّى
تُصعد انفاسها وتحدرها ... نازعة سيفي مسيرها فرّا
ولرب (أربير) من (مرّام) بدا ... أعلاهُ في السحب حيّر الفكرا
فجمل القول سيفي محاسنهِ ... شبابُ غضّ الطبيعة الزهرا
كأنهُ ملكٌ تزمّل في ... بجاد نورٍ مدبّج يُبرا[1]
والشمس عند الغروب تحسبها ... تاجاً عليهِ ياقوتة صفرا
والدارُ كالسرو قامةً شرعٌ ... وعمّد تدمرَ جانباً خضرا
والنجم من فوقهِ قناديل أو ... أقراط ماسٍ تحلقت جمرا
فدع ثبيراً[2] لذي القروح[3] فذا ... اجمل من غوطة ومن شبرى
من خلفهِ قننٌ وواديهُ ... القوقاس عن كثب انت تقرى
منجرات الذرى يتابع في ... الفجوج اجمعَ حبّت النهرا
ما تستحقّ دمشق او يرّدى ... بنسبةٍ ما لحسنهِ ذكرا
من شهرة النفس والعيون بهِ ... طيرٌ ابابيلُ اعيت الحصرا
ما راشدٌ بالفنون يدرك في ... تصوير افكارهِ بها خبرا
يرصدها كالعقاب مقتنصاً ... لنهمةٍ صائدٌ لها قهرا
يصرعها رميةً بلسرع ما ... يرجعُ يوجيسُ فارساً جرا
ديارُ كرج وأرمن وطني ... قبل انتقالي ابي الى أخرى
قد وقّيت ما يروع واكتسبت ... في ظلّ راية نسرها الفخرا
اتيتها بعد طول منتربٍ ... في المدن دوّختُ ارضها شهرا
هواؤها ماؤها وتربتها ... تسمو على الارض كلها خطرا
واهلها صورةً ونظرةً ... وقامةً احسن الورى طُرّا

(١) اخذ المعنى من قول امرئ القيس : كأن ثبيرًا في عرانين وبلهِ كبير اناس في بجاد مزمل
(٢) الجبل الذي وصفنا هنا (٣) ذو القروح لقب امرئ القيس لانهُ سُمّ فقرّح

الى ان قال :

شربتُ ريبَ استفقتُ من كدرٍ منتشاً وكأنني كسرى
أنشد مدح الامير مولاي عبد القادر العربيَّ مفتراً

اراد بهِ الامير عبد القادر الجزائري الشهير ثم ذكر حمايتهُ النصارى في حادثة ٢٧ حزيران سنة ١٨٦٠ في دمشق بقولهِ :

لهُ الايادي التي تدوم على طول المدى والمكارمُ الغرّا
لله صان دماء أمتنا في جأشِ يوم فيضها غدرا

ومن قصائدهِ التي نظمها في روسيا في ٢٨ ك١ سنة ١٨٦٥ على اثر سعي دولة روسيا بانقاذ قولهُ وعنوانها (الروسية) :

منذ القديم استدل الناس بالاثرِ وقفاً على العين او كشفاً عن الخبرِ
والعلم بالخلق والاخلاق مفتقرٌ الى السياحة بين البدو والحضرِ
من دوّخ الارض ادري بالسياسة لا من بات يقرأ في التاريخ والسيرِ

وهي طويلة وقد طبعت في كتابهِ المنشآت

ومن قصائدهِ التي نظمها في بلاد الانكليز قولهُ من قصيدة

مذ بتُّ مغتربًا في الارض اقصاها وفي بلادٍ برغمي كان مثواها
مدحتُ سيدةً في الانكليز[1] على سمعي بهاها ولم انظر محياها
وقد تصورتها والحسن يشهد لي بانها كاسمها سبقٌ وصف معناها
في الخلق والخُلق والمجد الرفيع وفي جميع ما تبتغي سلطانة جاها

وهي مطبوعة ايضاً

وقال من موشحة يذكر فيها بيروت والرفاق افتتحها بقوله

ما رمقتُ الرياض الاَّ عرتني نحو بيروت هزّةٌ اثر وجدِ
شوق ربع وجنة ذات حسنٍ عبقت بالزهر سبقٌ كل سعدِ
وحنيناً لصحبةٍ قدّمتني من أولي عزةٍ واصحاب مجدِ
ظلّ لطف الاله لي كان مُعني مع خليلٍ ومع حبيبٍ بودِ
وندامى اذا تذكرت أنني ثم رتلتُ ذكرهم ترتيلا

(١) يريد الملكة فكتوريا امبراطورة الهند وبريطانيا العظمى

واختتمها بقوله

يا اخلائي ما نبيتُ ودادا وانا متجلدٌ للبلايا
تارك الاهل والبلاد بعادا طالب الأمن في القلا والزوايا
واجداً لم أزل من الله زادا انهُ المانع الجميع العطايا
اذكرونا فالذكر يدفي مرادا طالما سفى النفوس منكم بقايا
وارى المال كلهُ مستفادا غير عمر الفتى فصبراً جميلا

اما كتابهُ اشعر الشعر فان فيهِ ركاكة غريبة وتصرفاً كثيراً وخروجاً عن القواعد المألوفة مما يدل على انهُ نظمهُ وهو مضطرب البال معتقل الحال

ومن محاسنهِ قول ايوب الصديق :

واني وان كنت البريء فلم أجب وأسترحم الديان يعفو ويغفرُ
ولو بتُّ ادعو واستجاب فما انا بسمع دعائي آمنٌ متبشرُ

وقولهُ لا تعدمَنَّ من رجاء روحةً قطعت تبقى خراعيبها في الارض تصطبرُ
ولو ارومتها تحت الثرى قدمت وجذعها مات بين الترب ينعفرُ
فانها تستطيل الفرع من بلل كالغرس ينبت اغصاناً ويتنشرُ
والمرء يبلى اذا شالت نعامتهُ يسلم الروح اين العين والخبرُ
فليأس نقادٌ من غدائرها والنهر يشف والآذيُّ يشمرُ

وقولهُ لي قيل طوبى لمن وعت اذنٌ والعين لي شهدت بالسر والعلنِ
لاني قد اجرتُ المستغيث واذ قلت اليتيم ولا حامٍ من المحنِ

ومن كلام بلدهِ الشوحي احد اصحاب ايوب الثلاثة قولهُ

ولئن تكن أولاك في صغر مضت أخراك تكثر من كبير المننِ
فسل القرون الاولين تطلعاً لمباحث الآباء من متردمِ
مذ امس نحنُ وعمرنا ظلٌّ ولا ندري احاديث الزمان الاقدمِ
هلاَّ بما ظلَّت نجنُّ قلوبهم هم ينبئونك قائلين ألا أعلمِ
في غير ذي غمق غما البوديُّ ام حلقاه تنبتُ دون ماء مُفعمِ
وتراهُ يبس وهو يزهو نضرةً من قبل عشبٍ في الفلاة مسهمِ
وكذا سبيل جميع نامي ربهم خاب الرجاء لناجرٍ وغشيشمِ

ومن غريب ما يستحق الذكر ان الناظم تصرف في الفصل الثامن عشر من سفر ايوب (اشعر الشعر صفحة ٣١) فنظمهُ بلاقافية فجاء ركيكاً مشحوناً بالاغلاط مع عدم تقيده

ومن اغرب كل ذلك انهُ عقد وصف ايوب الصدّيق للفرس ولم يجد فيهِ مع ان الشعر العربي مملوء من مثل هذه الاوصاف وهاك بعض هذا الوصف :

هل تُعطي الجواد يخبُّ عزماً وتكسو عنقهُ عرفاً بديعا[1]
يطن الخيت بجانك وثوبهُ يأس يلتقي الحرب الزّبونا
ويهزأ بالمخاوف ليس يخشى عن الاسياف لم يجحم جبينا
تصلُّ عليهِ واقعةً سهامٌ وترهقهُ رماح الدارعينا

ومن منتخبات عقدهِ لسفر الجامعة قولهُ :

وحزن الفتى خير من الضحك انهُ في الكآبة اصلاحاً لقلب مشتتِ
وفي عقر بيت النّوح قلبُ أولي الحجا وفي بيت لهو قلب ذي الجهل ما فتي
وللرد خيرٌ من غناء الأولى غرّوا صباح انتهار من حكيم مبكّتِ

وقولهُ ومن يثوِ في ظلّ من الحكمة اهتدي لما يتبوّأ مقعداً ظلّ فضلهِ
اذا الحكمة الزهراء تحيي صحابها فذلك فضل العلم عن جود قطنهِ

وقولهُ عاقداً الفصل الثاني عشر من الجامعة في موشح بليغ مطلعهُ :

عليك في الشباب ذكر الخالقِ قبل زمان الشرّ والبوائق
وحجج تقول فيها ما بقي ـ مرورُ

ومنهُ : غرّ الاباطيل وساءت حاله يئس الاماني للنفوس الطامعة
الكل في الدنيا بقول الجامعه ـ غرورُ

وزبدة الكلام ان المترجم من نوابغ السوريين في ذلك العهد بل كبار احرارهم على حين كان الاحرار يعدّون على الاصابع . وفي ما تقدم من ترجمتهِ بيانٌ كافٍ لمنزلتهِ من السياسة والآداب . وموعد نشر مقالتهِ في الطباعة الاقتصادية عدد آخر ان شاء الله

عيسى اسكندر المعلوف
اللبناني

(١) لم اجد هذه الكلمة ولكني ارجح انهُ اراد بها معنى الحسن من ابن الرجل اذا حسنت حيثهُ وهو من تصرف النشوي